رايات الإسلام



في المنصورة

رايات الإسلام



في المنصورة

بقلم : وصفي آل وصفي

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . م . ع .

رايات الإسلام

بَدأَ القَرْنُ السَّابعُ الْمِيلادىُّ والْعَرَبُ فى شِبهِ الْجَزيرَةِ ضِعافٌ ومُتفرِّقُونَ ، يَطْغَى عَليهمُ الْفُرسُ بالْعِراقِ – فى الشَّرقِ . . والرُّومُ بالشَّامِ – فى الشَّمالِ . .

وَبُعِثَ الرَّسُولُ ﷺ فَغيَّرَ الإِسْلامُ حَيَاةَ الْعَربِ تَغْيِيراً تَامًّا . .

أَمَدَّهُمْ بقوَّةٍ حقَّقتِ الْمُعْجزَات ، وَجَمعتْهُمْ – فى ظِلِّ رَايَاتِهِ – طُمأْنِينَةٌ نَفْسيَّةٌ تنبعُ مِنْ سَمَاحَتِهِ . . وَحَماسَة بُطُولِيَّة تَبْعَثُها فِيهِمْ أَهْدَافهُ الْعَظِيمَةُ . .

وَكانَتْ « مَكَّةُ » الْمدِينَة الأُولَى فى شِبْهِ الْجَزيرَةِ الَّتى تَمْتدُّ حَوَالىْ أَلْفِ كِيلُو مِتْرٍ مِنَ الشَّرقِ إلى الْغَربِ . . وما يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ ، لَكِنَّ هِجْرَةَ الرسُولِ ﷺ نَقَلتْ مَقَرَّ الْقِيَادَةِ الإِسْلاَمِيةِ إِلَى « يَثْربَ » الَّتى أَصْبَحتْ تُعْرفُ بِاسْمِ « الْمَدِينَة » . .

وَتُوفِّيَ الرَّسُولُ فى العَامِ الْحَادِى عَشَرَ الْهِجْرِيِّ – السنَةِ ٦٣٢ الْمِيلادِيَّةِ – فَتَتَابعَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ بالْمَدِينَةِ ، ومِنْهَا خَرجَتْ راياتُ الإسلامِ لتُوحِّدَ شِبه الجَزيرةِ العَربيّة ، ثُمَّ انْطَلَقتْ إِلَى الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ . . تُبَشِّرُ الشُّعُوبَ بالتَّحْرِيرِ وَتَزُفُّ إِلَيْها الْعَدْلَ وَالْحريَّةَ . . وَتَصْحبُ الْمُؤْمِنينَ فى مَعارِكَ خَالِدَةٍ مَا تَزَالُ أَخبَارُها تُروى فَتُثِيرُ الإِعْجَابَ لَدَى الْقَادَةِ والْجُنُودِ ، وَتَغْرِسُ الْعِزَّةَ فى نُفُوسِ النَّاشِئَةِ . .



فى المنصورة

فى أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الحادِى عَشَرَ المِيلادِىِّ جَاءَتْ أُولَى الْحَمَلاَتِ الصَّلِيبِيَّةِ إلى بلادِ الشَّامِ ، يَقُودُهَا أُمَرَاءُ أوربّا وَيُبَارِكُهَا بابا « رُومَا » . . الرَّئِيسُ الدِّينىُّ لِلْكَنِيسَةِ الكَاثُولِيكِيَّةِ . .

جَاءَتْ تَحْمِلُ شِعَارَ الصَّلِيبِ على أَعْلاَمِهَا ، وَشَهْوَةُ السَّيْطَرَةِ وَالاسْتِغْلاَلِ فى قُلُوبِ قَادَتِهَا . .

وَمُنْذُ ذَلِكَ الحينِ والصَّلِيبِيُّونَ يَتَطَلَّعُونَ إِلَى مِصْرَ ، وَلاَ يَكُفُّونَ عَنْ مُهَاجَمَتِهَا بَرًّا وَبَحْرًا . أَدْرَكُوا أَنَّ مِصْرَ هِيَ مَرْكَزُ الثِّقَلِ فى حَرَكَةِ الْمُقَاوَمَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ التى لَمْ تَهْدَأْ يَوْمًا مُنْذُ أَغَارُوا على الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ حتَّى انْدَحَرُوا وَانْسَحَبُوا مِنْهَا ، فَحَاوَلُوا الْقَضَاءَ على تِلْكَ الْقُوَّةِ لِيَتَيسَّرَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِخْضَاعُ

الأَقْطَارِ الإسْلامِيَّةِ كُلِّها . لـكنَّ الْعِنَايَةَ الإِلٰهِيَّةَ بَعَثَتْ فى الأُمَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ رِجَالاً حَمَلُوا رَايَاتِهَا عَالِيَةً خَفَّاقَةً ، وَتَصَدَّوْا لِلْعُدْوَانِ كُلَّمَا حَشَدَ الْعُدْوَانُ حَمْلَةً صَلِيبِيَّةً جَدِيدَةً .

مِنْ هَؤُلاءِ الرِّجَالِ البَطَلُ الكَبِيرُ « صَلاَحُ الدِّين الأَيُّوبِىّ » ، الْذِى اِنْتَصَرَ على الصَّلِيبِيِّينَ اِنْتِصَارًا حَاسِمًا فى مَعْرَكَةِ « حِطِّين » المشْهُورَةِ عام **٥٨٣** الهِجْرِىّ – **١١٨٧** المِيلادِىّ – وَاسْتَرَدَّ مَدِينَةَ « الْقُدْسِ » فى الْعَامِ نَفْسِهِ . .

غَيْرَ أَنَّ وَفَاةَ « صَلاحِ الدِّين » عام **٥٨٩** الهِجْرِىّ ، **١١٩٣** المِيلادِىّ ، تَرَكَتْ فَرَاغًا كَبِيرًا فى الْوَحْدَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ . . تِلْكَ الْوَحْدَةَ الّتى كانَت السَّبَبَ الرَّئِيسىَّ فِى هَزِيمَةِ الصَّلِيبِيِّينَ . ثُمَّ اخْتَلَفَ أَبْنَاؤُهُ وَإِخْوَتُهُ وَأَبْنَاءُ عَمِّهِ ، وَتَنَازَعُوا فِيمَا بَيْنَهُم ، فَأَصَابَهُم الضَّعْفُ جَمِيعًا . .

وَالضَّعْفُ أَطْمَعَ فِيهِم الصَّلِيبِيِّينَ مِنْ جَدِيدٍ !

مَضَتْ سَبْعُ سَنَواتٍ عَلَى وَفَاةِ صَلاَحِ الدِّينِ وَالْحُرُوبُ الدّاخِلِيَّةِ تُمَزِّقُ الأَقْطَارَ الإِسْلاَمِيَّةَ ، ثُمّ هَبَّ أَخُوهُ الأَكْبَر « أَبُو بَكْر بْنُ أَيُّوب » فَأَمْسَكَ بِزِمَامِ الأُمُورِ فى الْقَاهِرَةِ وَتَلَقَّبَ

بِالْمَلِكِ «العَادِلِ» . . وَأَعَادَ تَوْحِيدَ مِصْرَ وَالشَّام . .

وَفِي هَذِهِ الأَثْنَاءِ كَانَ مُلُوكُ أُورُبّا وَأُمَراؤُها يَعْمَلُونَ لانْتِزَاعِ بَيْتِ المَقْدِسِ مِنَ الْمُسْلِمِين ، وبَابَا رُومَا يَدْعُو لإِعْدَادِ حَمْلَةٍ صَلِيبيَّةٍ – الحَمْلَة الرّابِعَة – يَكُونُ هَدَفُها الاسْتِيلاءَ على مِصْرَ ، وَاسْتِخْدَامَ مَوْقِعها الجغْرافِيِّ الْمُمْتَازِ فى احتلال مِنْطقَةِ «الشَّرْقِ الأَوْسَط » .

غَيْرَ أَنَّ هُجومَ تِلْكَ الْحَمْلَةِ عَلَى مِصْرَ لَمْ يُسْفِرْ إلاّ عَنْ غَارَةٍ لا قِيمَةَ لَهَا ، اِسْتَهْدَفَتْ مِينَاءَ «رَشِيد» عَامَ ١٢٠٤ الميلادِىّ ، عُقِدَتْ بَعْدَها الْهُدْنَةُ بيْنَ الْمَلِكِ الْعَادِلِ وَمَلِكِ «عكا» الصَّلِيبى . .

لَكِنَّ بَابَا رُوما لَمْ يَرْضَ بِذَلِكَ ، وَرَاحَ يَسْتَصْرِخُ الْمُلُوكَ وَالأُمَراءَ المَسِيحِيِّينَ ويُحَرِّضُ رَعَايَاهُم . . دَاعِيًا لِحَمْلَةٍ صَلِيبِيَّةٍ جَدِيدَةٍ تُحَقِّقُ ما كَانَ يَطْمَعُ فِيهِ مِنْ نُفُوذٍ دِينِىٍّ عَلَى مَسِيحِيِّى الشَّرْقِ وَأَرْسَلَ فى عام ١٢١٦ الميلادِىّ يَطْلُبُ مِنَ الْمَلِكِ الْعَادِلِ تَسْلِيمَ مَدِينَةِ الْقُدْسِ ، وَيُهَدِّدُهُ بِغَزْوِ مِصْرَ إِذَا لَمْ يَفْعَلْ . .

وَأَخِيرًا جَاءَتِ الْحَمْلَةُ الصَّلِيبِيَّةُ – الْخَامِسَةُ – إلى مِصْرَ ، وَنَزَلَتْ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنْ مِينَاءِ « دِمْيَاط » . وَكَانَ المَلِكُ العَادِلُ الذِى بَلَغَ الْخَامِسَةَ وَالسَّبْعِينَ يُقِيمُ بِدِمِشْقَ مَرِيضًا ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ تُوفِّىَ عِنْدَمَا صَدَمَتْهُ أَخْبَارُ الْعُدْوَانِ الصَّلِيبِىِّ . . وَتَوَلَّى الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ . . ابْنُهُ . . « نَاصِرُ الدِّينِ » المَعْرُوفُ بِاسْمِ الملكِ « الكَامِلِ » . .

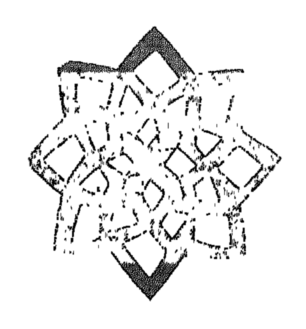
أَسْرَعَ المِلِكُ الجَدِيدُ مِنَ الْقَاهِرَةِ إلى « فَارَسْكُور » عَلَى فَرْعِ دِمْيَاطَ مِنْ نَهْرِ النِّيلِ اِسْتِعْدَادًا لِقِتَالِ الصَّلِيبِيِّينَ ، إلاّ أَنَّ هؤُلاءِ تَمَكَّنُوا مِنْ دُخُولِ دِمْيَاطَ عام ١٢١٩ الميلادِىّ ، فَفَضَّلَ الْكَامِلُ أَنْ يَنْتَظِرَ وُصُولَ الْمَدَدِ مِنَ الأَقْطَارِ الإِسْلاَمِيَّةِ . . وغَادَرَ فَارَسْكُورَ إلى الجَنُوبِ حَيْثُ اخْتَارَ لمعَسْكَرِهِ مَوْقِعًا جَدِيدًا عَلَى النِّيلِ يَحْمِيهِ الماءُ مِنَ الشَّمَالِ وَمِنَ الْغَرْبِ . وَبَيْنَمَا كَانَ الصَّلِيبِيُّونَ فى دِمْيَاطَ مَشْغُولِينَ بِالْخِلاَفِ بَيْنَ قَادَتِهِم ، ومُنهَمِكِينَ فى تَحْوِيلِ مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ إلى كَنِيسَة كانَ المَلِكُ الْكَامِلُ يُحَصِّنُ مُعَسْكَرَهُ الْجَدِيدَ وَيَبْنِى فِيهِ الْبُيُوتَ وَالْمَخَازِنَ . .

وَفى عامِ ١٢٢١ الميلادى سَارَ الصَّلِيبِيُّونَ جَنوبًا يُرِيدُونَ بُلُوغَ الْقَاهِرَة ، فَاعْتَرَضَتْهُمُ الْقُوَّاتُ الإِسْلاَمِيَّةُ . . وَنَجَحَتْ فى الالْتِفافِ مِنْ حَوْلِهِم . . بَرًّا وَفى النِّيلِ . . فَقَطَعَتْ عَلَيْهِم خَطَّ الرَّجْعَةِ ، وَحَالَتْ دُونَ وُصُولِ النَّجداتِ إِلَيْهِم مِنْ دِمْيَاط . .

وَسُرْعَانَ مَا اضْطُرَّ الصَّلِيبِيُّونَ إلى طَلَبِ الصُّلْحِ ، وَالْجَلاَءِ عَنِ الأَرْضِ الْمِصْرِيَّةِ . .

وَبِهَذِهِ المَنَاسَبَةِ أَقَامَ « الْكَامِلُ » احْتِفَالاً كَبِيرًا بِمُعَسْكَرِهِ الذِى اسْتَغْرَقَ بِنَاؤُهُ ثَمَانِيَةَ عَشرَ شَهْرًا وَأَصْبَحَ مَدِينَةً صَغِيرَةً ، وَمُنْذُ ذَلِكَ الحين عُرِفَ بِاسْمِ «الْمَدِينَةِ الْمَنْصُورَة» !

وَفى الْمَنْصُورَةِ . . اِنْتَصَرَتْ رَايَاتُ الإِسْلاَمِ اِنْتِصَارًا آخَرَ . . عَظِيمًا !



تُوُفِّيَ «الْكَامِلُ» عامَ ١٢٣٩ الميلادِيّ فَنَشِبَ الْخِلاَفُ بَيْنَ وَلَدَيْهِ ، لَكِنَّ أَكْبَرَهُمَا – «الصّالِحَ أَيُّوبَ» – اِسْتَطَاعَ أَنْ يَنْفَرِدَ بِالْحُكْمِ بَعْدَ مَعَارِكَ كَثِيرَةٍ مَعَ الأُمَرَاءِ الأَيُّوبِيِّين .

وَتَصَدَّى «الصَّالحُ أَيُّوبُ» لِلصَّلِيبِيِّينَ فَأَوْقَعَ بِهِمْ هَزَائِمَ مُتَلاَحِقَة ، ثُمَّ حَاصَرَهُم بَرًّا وَبَحْرًا فى «عَسْقَلان» وطَرَدَهُم مِنْهَا عام ١٢٤٧ الميلادى . .

وَتَفَرَّغَ بَعْدَ ذَلِكَ لِتَرْمِيمِ الْحُصُونِ فى مِصْرَ وَالشَّام . .

لَكِنَّ الصَّلِيبِيِّينَ لَمْ يَفِيقُوا مِنْ أَحْلاَمِهِم ، وَلَمْ يَرْجِعُوا عَنْ غَيِّهِم . .

مَرِضَ مَلِكُ فَرَنْسَا «لِويسُ» التّاسِعُ ، فَنَذَرَ لله نَذْرًا . .

لَمْ يَجِدِ المَلِكُ الأُورُبِيُّ مَا يَنْذِرُهُ لله ، إِنْ شَفَاهُ ، إلاّ أَنْ يَخْرُجَ إلى الشَّرْقِ عَلَى رَأْسِ حَمْلَةٍ صَلِيبِيَّة !

وَرَحَّبَ البَابَا بِنَذْرِ الملكِ الفرنسيِّ .

وَنَشِطَ الاثْنَانِ – الملكُ والبَابَا – لِدَعْوَةِ المسِيحِيِّينَ فى أَنْحَاءِ

البحر المتوسط

دمياط

العادلية

فارسكود

بحيرة المنزلة

شارمساح

سمنون البرمون

طلخا

بحر اشموم

اشموم طناح

المنصورة

جديلة

فرع دمياط

حملة
لويس التاسع على مصر

أورُبا لِلْمُشَارَكَةِ فى الْحَمْلَةِ ، وَسَعَى الاثْنَانِ إلى التَّحَالُفِ مَعَ «التَّتَارِ» الْوَثَنِيِّينَ لِيَنْقَضُّوا على المسلمِين مِنْ نَاحِيَةِ الشَّرْقِ،عَلَى حِينِ تُطْبِقُ عَلَيْهِم حَمْلَةُ «لويس» مِنْ نَاحِيَةِ الغَرْبِ !

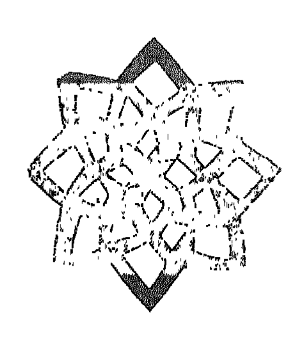
لَمْ يَسْتَجِبِ التَّتَارُ لمحاوَلاَتِ الصَّلِيبِيِّينَ ، المُتَكَرِّرَةِ ، فَقَادَ «لويس» حَمْلَتَهُ إِلَى مِصْرَ بَعْدَ اِسْتِعْدَادَاتٍ اِسْتَمَرَّتْ ثَلاثَ سَنَواتٍ . بَدَأَتْ قُوَّاتُ الْحَمْلَةِ تَتَجَمَّعُ فى جَزِيرَةِ «قُبْرُص» ، ثُمَّ تَحَرَّكَتْ مِنْهَا إلى الشَّاطِئِ المِصْرِيِّ ، وَاحْتَلَّتْ ميناءَ دِمْيَاط فى مُنْتَصَفِ عامِ ١٢٤٩ الميلاديّ..

وعلى الرَّغْمِ مِنْ مَرَضِ «الصَّالِحِ أَيُّوب» الشَّدِيدِ ، فَقَدْ هُرِعَ مِنْ دِمِشْقَ حَيْثُ كَانَ يُقِيم . . تَصْحَبُهُ زَوْجَتُهُ «شَجَرَةُ الدُّرِّ» . وَجَاءَ إلى مِصْرَ مَحْمُولاً على أَكْتَافِ رِجَالِهِ ، ثُمَّ نَقَلَتْهُ سَفِينَةٌ فى النِّيلِ إلى الْمَنْصُورَةِ ، وَهُنَاكَ نَزَلَ بِالْقَصْرِ الذى بَنَاهُ فِيها «الْكَامِلُ» وَاتَّخَذَهُ مَقَرًّا لِقِيَادَتِهِ . .

وَسُرْعَانَ مَا احْتَشَدَ بِالْمَنْصُورَةِ جَيْشُ «الْمَمَاليك الْبَحَرِيَّة» الذى حَرَصَ «الصَّالِحُ أَيُّوبُ» على تَنْظِيمِهِ وَتَقْوِيَتِهِ مُنْذُ تَوَلَّى الْحُكْمَ ، وَكَذَلِكَ وَفَدَ إليها عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْمُقَاتِلينَ الْبَدْوِ . .

وَرِجَال الدِّينِ . . وَالصُّنَّاع . . وَرَسَا على شاطِئِهَا مُخْتَلَفُ الأَنْوَاعِ مِنَ السُّفُنِ الْحَرْبِيَّةِ . .

وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى الْتَقَى الْجَانِبَانِ : الإِسْلامِىُّ وَالصَّلِيبِىُّ – فى صِرَاعٍ شَدِيد !



٢

نَظَّمَ « الصَّالِحُ أَيُّوبُ » غَارَاتٍ خَاطِفَةً على الصَّلِيبِيِّينَ فى دِمْيَاط ، وَفِى كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ المصْرِيُّونَ يَعُودُونَ إلى الْمَنْصُورَةِ بِعَدَدٍ مِنَ الأَسْرَى . فَلَمَّا عَزَّزَتِ النَّجْدَاتُ قُوَّاتَ « لوِيس » خَرَجَ مِنْ دِمْيَاط مُتَّجِهًا إلى الْمَنْصُورَة ، تَسِيرُ سُفُنُه فى النِّيلِ وَتَزْحَفُ كَتَائِبُهُ بَرًّا . .

وَبَلَغَتْ أَخْبَارُ الْحَمْلَةِ « الصَّالِحَ أَيُّوب » ، فَاعْتَزَمَ الصُّمُودَ فى الْمَنْصُورَةِ وَمَنَعَ الصَّلِيبِيِّينَ من الانْدِفَاعِ إلى القَاهِرَةِ . لَكِنَّ الْقَدَرَ لَمْ يُمْهِلْهُ ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ تُوُفِّىَ قَبْلَ أَنْ يَقْتَرِبَ الأَعْدَاءُ من الْمَنْصُورَة . .

عِنْدَئِذٍ بَادَرَتْ زَوْجَتُهُ « شَجَرَةُ الدُّرِّ » إلى مُعَالَجَةِ الْمَوْقِفِ بِشَجَاعَةٍ وَذَكَاء . .

أَخْفَتْ خَبَرَ مَوْتِهِ ، فَلَمْ يَعْلَمْ بِهِ غَيْرُ الأَمِيرِ « فَخْرِ الدِّينِ » الْقَائِدِ العَامِّ لِلْجَيْشِ المِصْرِىِّ ، وَخَادِمِ المَلِك . .

أَعْلَنَتْ أَنَّ زَوْجَهَا مَرِيضٌ لا يَسْتَقْبِلُ غَيْرَ أَطِبَّائِهِ . . وَتَعَاوَنَ

مَعَهَا هؤُلاءِ الأَطِبَّاءُ فكَتَمُوا السِّرَ ، وَبَعَثَتْ تَسْتَدْعِى اِبْنَهُ «طُوران شَاه» الذى كانَ يُقِيمُ خَارِجَ مِصْرَ . وَجَمَعَتْ قُوَّادَ الْمَمَالِيكِ الْبَحرِيَّة تَرْسُمُ مَعَهُمْ الخُطَطَ لِوَقْفِ التَّقَدُّمِ الصَّلِيبِىِّ . .

غَيْرَ أنَّ الصَّلِيبيِّينَ تَمَكَّنُوا من دُخُولِ فَارَسْكُور ، وَمِنْهَا سَارُوا حَتَّى وَصَلُوا إلى شَمَالِ الْمَنْصُورَةِ . وَهُنَاكَ أَقَامُوا مُعَسْكَرَهُم على الضَّفَّةِ الشَّمَالِيَّةِ بِفَرْعِ النِّيلِ المَعْرُوفِ بِاسْمِ «بَحْرِ أَشْمُوم طَنَاح» ، وَجَاءَتْ سُفُنُهُم فَرَسَتْ بِالْقُرْبِ مِنَ الْمُعَسْكَرِ .

وَشَرَعُوا يَبْنُونَ جِسْرًا مِنَ السُّفُنِ وَالأَخْشَابِ ، لِيَعْبُرُوا عَلَيْهِ النَّهْرَ إلى الْمَنْصُورَةِ ، لَكِنَّهُم لَمْ يَنْجَحُوا فى إِتْمَامِ مَشْرُوعِهِم على الرَّغْمِ مِنَ المحَاوَلاتِ الْعَدِيدَةِ التى قَامُوا بِهَا ، فَقَدْ تَصَدَّى لَهُمُ الْمِصْرِيُّونَ بِقِيَادَةِ الأَمِيرِ «فَخْرِ الدِّينِ» مِنْ مُعَسْكَرِهِ الْمُوَاجِهِ لَهُمْ ، وراحُوا يَرْمُونَهُم بِالْقَذَائِفِ الْمُلْتَهِبَةِ فَيحْرِقُونَ مَا يَبْنُونَهُ أَوَّلاً بِأَوَّل . وَكُلَّمَا تَقَدَّمُوا فى النَّهْرِ مَسَافَةً قَصِيرَةً حَفَرَ

الْمِصْرِيُّونَ الضَّفَّةَ مِنْ نَاحِيَتِهِم بِقَدْرِ تَقَدُّمِهِم ، فَتَبْقَى المَسَافَةُ ثابتة .

وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ كَانَ الْفُرْسَانُ الْمِصْرِيُّونَ يَعْبُرُونَ بَحْرَ أَشْمُوم وَيُفَاجِئُونَ الصَّلِيبِيِّينَ فِي قَلْبِ مُعَسْكَرِهِم ، كَمَا أَنَّ الأَهَالِي مِمَّنْ يُجِيدُونَ السِّبَاحَةَ كَانُو يَنْزِلُونَ إِلَى المَاءِ فَيَقْتَرِبُونَ مِنْ مُعَسْكَرِ الصَّلِيبِيِّينَ وَيَتَخَطَّفُونَ بَعْضَهُم !

وَكَادَ الْيَأْسُ يَغْلِبُ الْمَلِكَ « لويس » وَقُوَّادَهُ عِنْدَمَا تَبَيَّنُوا أَنَّ المِصْرِيِّينَ لَنْ يُمَكِّنُوهُمْ مِنْ إِقَامَةِ الْجِسْرِ أَبَدًا ، لكِنَّ الْخِيَانَةَ فَتَحَتْ لَهُمْ بَابًا جَدِيدًا مِنَ الأَمَلِ . . فَقَدْ دَلَّهُم أَحَدُ الْخَوَنَةِ عَلَى مَخَاضَةٍ عَبْرَ بَحْرِ أَشْمُوم ، بَعِيدَةٍ بَعضَ الشَّيْءِ عَنِ الْمَنْصُورَةِ ، فَاجْتَازُوهَا إِلى الضَّفَّةِ الأُخْرَى . .

وَقَبَضَ الْخَائِنُ ثَمَنَ خِيَانَتِهِ مَبْلَغًا كَبِيرًا مِنَ النُّقُودِ الذَّهَبِيَّةِ !

٤

بَدَأَ الصَّلِيبِيُّونَ يَعْبُرُونَ النِّيلَ فى الْفَتْرَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ اللَّيْلِ بِقِيَادَةِ «الكُونْت – آرتوا» شَقِيقِ المَلِكِ «لويس» ، فَلَمَّا انْتَشَرَ ضَوْءُ الْفَجْرِ فُوجِئَ الْفُرْسَانُ المصْرِيُّونَ الْمُكَلَّفُونَ بِالْحِرَاسَةِ عِنْدَ المخَاضَةِ بعَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الأَعْدَاءِ يَصْطَفُّونَ عَلَى الشَّاطِئِ الْجَنُوبِىّ لِلنَّهْرِ . وَرَأَت قُوَّةُ الْحِرَاسَةِ المِصْرِيَّةِ نَفْسَها أَضْعَفَ مِنْ أَنْ تَثْبُتَ لِلصَّلِيبِيِّين ، فَأَسْرَعَتْ مُتَرَاجِعَةً إلى مُعَسْكَرِ الأميرِ «فَخْرِ الدِّينِ» . .

وَكَانَتْ تَعْلِيمَاتُ الملكِ «لويس» تَقْضِى بِأَنْ تَنْتَظِرَ الْفِرَقُ التى تَجْتَازُ المخَاضَةَ أَوَّلاً إلى أَنْ يَتِمَّ عُبُورُ بَقِيَّةِ الْجَيْشِ ، لَكِنَّ «الكُونْت آرتوا» شَاهَدَ الْفُرْسَانَ المصْرِيِّينَ يَرْتَدُّونَ فَأَرَادَ انْتِهَازَ الفُرْصَةِ لِتَحْقِيقِ نَصْرٍ عَاجِلٍ يُنْسَبُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ . . وَانْدَفَعَ يُطَارِدُ المصْرِيِّينَ بِمَنْ مَعَهُ . .

وَجَاءَ الْفُرْسَانُ المصْرِيُّونَ إلى مُعَسْكَرِ الأَمِيرِ «فَخْرِ الدِّينِ» فَوَثَبَ القَائِدُ المِصْرِىُّ على جَوَادِهِ وتَقَدَّمَ فى عَدَدٍ قَلِيلٍ من رِجَالِهِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

لِصَدِّ الهَجْمَةِ الصَّلِيبيَّة . . وَاسْتُشْهِدَ مُقَاتِلاً . .

وَسَالَ لُعَابُ « الكونْت » الفرنْسِىِّ !

القَائِدُ المصْرِىُّ قُتِلَ ، وَالاِضْطِرابُ يَعُمُّ المعَسْكَرَ فَيَفِرُّ الْجنُودُ إلى المَنْصُورَةِ وَمِنْ خَلْفِهِم كُلُّ مَنْ كَانَ بِالْمُعَسْكَرِ مِنْ صُنَّاعٍ وَأَهَالِىَ . .

النَّصْرُ إِذَنْ قَرِيبٌ ، وَمَا عَلَيْهِ إلاّ أَنْ يَنْقَضَّ عَلَى الْمَنْصُورَةِ فَتَسْتَسْلِمَ لَهُ !

لَمْ يَسْتَمِعِ « الْكُونْتُ » لِمَنْ كَانَ مَعَهُ مِن القُوّادِ ، وتَجاهَلَ أَوَامِرَ شَقِيقِهِ . وَانْطَلَقَ إلى المَنْصُورَةِ فَجَارَاهُ بَقِيَّةُ الْقُوَّادِ ، وَتَحَوَّلَ الأَمْرُ إلى سبَاقٍ بَيْنَهُم نَحْوَ النَّصْرِ الذِى خُيِّلَ إليهِم أنَّهُ دَانٍ يَنْتَظِرُ مَنْ يَمُدُّ سَيْفَهُ فَيَقْطُفُهُ !

وفى المَنْصُورَةِ كَانَتْ تُعَسْكِرُ فِرْقَةُ المَمَاليكِ الْبَحَرِيَّة بِقِيَادَةِ الأَمِيرِ « بِيبَرْس » الذِى تَوَلَّى حُكْمَ مِصْرَ فِيمَا بَعْدُ ، وعُرِفَ بِاسْمِ « الظَّاهِرِ بِيبَرْس » . وكانَ « بيبرسُ » قد رَسَمَ مَعَ شَجَرَةِ الدُّرِّ خُطَّةً حَرْبِيَّةً نَفَّذَهَا بِنَجَاحٍ ، فَأَبْقَى فِرْقَةً مِنَ الْفُرْسَانِ

الْمِصْرِيينَ فى مَكْمَنٍ خَارِجَ الْمَنْصُورَةِ . . وَوَزَّعَ بَقِيَّةَ الجُنُودِ مِنْ مَمَالِيكَ وَمِصْرِيِّينَ على مَوَاقِعَ مُتَفَرِّقَةٍ دَاخِلَ الْمَدِينَةِ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَلْزَمُوا مَوَاقِعَهُم حَتَّى تَأْتِيهُم إِشَارَتُهُ بِالْهُجُومِ . .

وَطَلَبَ مِنَ الأَهَالِى أَنْ يَظَلُّوا فى بُيُوتِهِم إلى أَنْ تَحِينَ اللَّحْظَةُ الْمُنَاسِبَةُ لِاشْتِرَاكِهِم فى الْقِتَالِ . .

وهَكَذَا دَخَلَ الصَّلِيبِيُّونَ الْمَنْصُورَةَ فَخُيِّلَ لِقَادَتِهِم أَنَّهُم يَدْخُلُونَ مَدِينَةً مَهْجُورَةً ، فَرَّ مِنْهَا جُنْدُهَا وَهَجَرَهَا أَهْلُهَا . .

وَتَفَرَّقَ الْغُزَاةُ فى الشَّوَارِعِ يُمَنُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِالسَّلْبِ وَالنَّهْبِ .

وَفَجْأَةً تَحَرَّكَتْ فِرْقَةُ الْفُرْسَانِ الْكَامِنَةِ خَارِجَ الْمَدِينَةِ وَأَطْبَقَتْ على الصَّلِيبِيِّينَ مِنَ الْخَلْفِ ، وَبَرَزَ لهُم المماليكُ يُقَاتِلُونَهُمْ وَيُحِيطُونَ بِهِمْ . وفى الوقتِ نَفْسِهِ هَبَّ الأَهَالى فى أَنْحَاءِ الْمَدِينَةِ . . خَرَجَ بَعْضُهُم إلى الشَّوَارِعِ يَقْطَعُ على العَدُوِّ خَطَّ الرَّجْعَةِ ، وَصَعِدَ بَعْضُهُم إلى الأَسْطُحِ يَرْمِى الصَّلِيبِيِّينَ بِكُلِّ ما تَصِلُ إليه الأَيْدِى . .

وَسُرْعَانَ مَا انْتَهَتِ المَعْرَكَةُ بَعْدَ أَنْ قُتِلَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ ، فِيهم «الكُونت آرتوا» وَفَرَّ الْبَاقُونَ . وَكَانَتْ

مَعْرَكَةُ المَنْصُورَةِ ، فى الثَّامِنِ من فِبْرَايِر عام ١٢٥٠ الميلادىّ ، بدايَةً لِسِلْسِلَةٍ مِنَ الهزَائِمِ أَوْقَعَهَا المصْرِيُّونَ بِالصَّلِيبِيِّينِ . اِنْتَهَتْ بِأَسْرِ الملكِ « لويسِ التّاسِعِ » وَالآلافِ من رِجَالِه . .

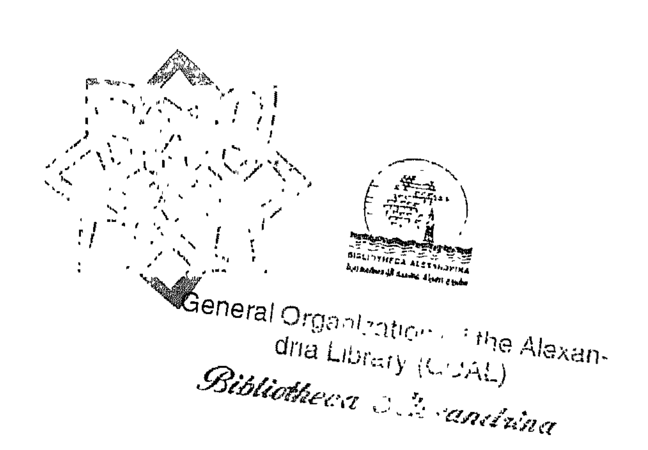
وَهَكَذَا دَخَلَتِ الْحَمْلَةُ الْفرنْسِيَّةُ السّابِعَةُ المنصُورَة ، أَسِيرَةً !

وَفى الدَّارِ الْمُخَصَّصَةِ لِرَئِيسِ دِيوَانِ الإِنْشَاءِ ، الْقَاضِى « فَخْرِ الدِّينِ بنِ لُقْمَان » أَقَامَ « لوِيس التَّاسِعُ » فِى حِرَاسَةِ جُنْدِىٍّ مِصْرِىٍّ هُوَ « الطَّوَاشِىُّ صبيحُ » إلى أَنْ وَافَقَ عَلَى شَروطِ المصْرِيِّينَ لإِطْلاَقِ سَرَاحِهِ . .

وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى سَقَطَتْ رَايَاتُ الْعُدْوَانِ عَنْ دِمْيَاطَ وَرَفْرَفَتْ فَوْقَهَا رَايَاتُ الإِسْلاَمِ الْمُشْرِقَةُ . . وَأَنْشَدَ الشَّاعِرُ المصْرِىُّ « جَمَالُ الدِّينِ بن مَطْرُوح » بِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ يَقُولُ :

قُلْ لِلْفَرَنْسِيسِ إِذَا جِئْتَهُ   مَقَالَ صِدْقٍ مِنْ قَئُولٍ نَصِيح
أَتَيْتَ مِصْرًا تَبْتَغِى مُلْكَهَا   تَحْسَبُ أَنَّ الزَّمْرَ يا طَبْلُ رِيح
وَكُلَّ أَصْحَابِكَ أَوْدعْتَهُمْ   بِحُسْنِ تَدْبِيرِكَ بَطْنَ الضَّرِيح
سَبْعُونَ أَلْفًا لاَ يُرَى مِنْهُمُ   إلاّ قَتِيلٌ أَوْ أَسِيرٌ جَرِيح

وَقُلْ لَهُم إِنْ أَزْمَعُوا عَوْدَةً لأَخذِ ثأْر أَوْلِفِعْلٍ قَبِيح
دَارُ ابنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا وَالْقَيْدُبَاقٍ وَالطَّوَاشِى صَبِيح



رقم الإيداع	١٩٩١ / ٣٦١٤
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-3256-4

١ / ٩١ / ٧٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

رايات الإسلام

١ – فى اليمامة

٢ – فى اليرموك

٣ – فى القادسية

٤ – فى عين شمس

٥ – فى نهاوند

٦ – فى ذات الصوارى

٧ – فى المغرب

٨ – فى الأندلس

٩ – فى حطين

١٠ – فى المنصورة

١١ – فى عين جالوت



دار المعارف